والثورة، وهذه المرأة البسيطة، التي عاشت زمن الهجرات الفلسطينية تفهم التاريخ، وتستطيع أن تفهم أن الثورة تولد من رحم الفترة التاريخية من صمود الثوار وثبات أبناء هذه الأمة، فهي تقرر قائلة: «أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس»[١١].. انها تسد برؤيتها هذه ثغرة النضال الفلسطيني التي رواها غسان في كتاباته السابقة، لأن ثمرة الكفاح تنضج في هذه الرواية التعليمية البسيطة، لتحكي الرواية حكاية المخيم الفلسطيني في المنفى، وتصور وحل المخيم وماءه الذي تغوص فيه أم سعد، وهو الواقع الذي عاشته الجماهير الفلسطينية ــ من قبل ــ. وفي الرواية يأتي هذا القول كمعادل فني للوضع السياسي الذي سبق هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، فكما أمضت أم سعد ليلتها غارقة في الوحل والماء[١٢]، أمضت الأنظمة السياسية العربية عمرها في وحل التطور السياسي، وهذا ما يمكن استخلاصه من طبيعة اللغة المستخدمة في السرد الروائي، والتي تجري على لسان أم سعد. اللغة تنبثق من تاريخها، من لحظة الصراع المحتدم، ليجترح الكاتب مفرداته.. فـ«أم سعد [علمته] طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض»[١٣].

في هذا المنحى، لا يتعقد السرد، ولا تتعقد البنية الروائية عند غسان، بل تأخذ مساراً خطياً في السرد، يتصاعد في بنية القول والحوار، دون أن يتكثف السرد، ويتفجر الصراع في الرواية. رواية «أم سعد» رواية «خطية» اذا أمكننا استعارة الاصطلاح الرياضي، ساكنة في الحدث ومتحركة في الحوار، أي ان حركة الرواية.. منبثقة من حوارها لا من تفجر أحداثها. لتبيان ذلك، نأخذ هذه الجملة الحوارية التي ينطق بها أبو سعد. «هذه المرأة تلد الأولاد فيصيرون فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ»[١٤]. ان الجملة تخبر بالحدث في تواصله الزمني، أي في خطه السردي الاخباري... فالقارىء، هنا، أمام النتيجة، نتيجة التاريخ الشخصي لأم سعد، وليس أمام هذا التاريخ اليومي المتراكم في تتابعه الزمني. ان هذه البنية السردية المتبعة في رواية «أم سعد» هي الحالة الكتابية البسيطة، والتعليمية، التي انتهى اليها غسان قبل استشهاده، فأخذ يتنازل عن فنية الكتابة من أجل ايصال مضمونه الكتابي لأكبر قطاع من القراء، المضمون مقابل الفن، والذي لم يستطع غسان أن يواصله في مجزوءاته الهامة «العاشق، والأعمى والأطرش»، لأن الكتابة الروائية لا تتنازل عن قوانينها، وفنان مثل غسان لا يستطيع إلّا البحث عن أعلى حالة في الفن لتجسيد أعلى حالة في الموقف السياسي. ومن الملاحظ، أن هذا الصراع المحتدم في كتاباته بين هاتين الحالتين يأخذ في التصاعد في الفترات الحرجة من تاريخ المقاومة الفلسطينية، انفعالاً بحالة الكاتب السياسي، أو حالة السياسي الكاتب. ولكن غسان يحل مسألة الصراع في مجزوءات لم يتح لها الاكتمال، ولكنها جسدت روحية الكتابة الثورية وتوترها وجماليتها الفنية العالية.

هذه المسألة تثير العديد من الأسئلة حول تطور غسان ككاتب روائي، وقاص، ومسرحي، تعامل مع كافة هذه الأجناس الأدبية، بالاضافة الى كتابات نقدية ودراسات أدبية وسياسية أنجزها في عمر زمني وفني قصير... فهو يتدرج، في وعيه الأدبي، عبر مراحل عمره من تجسيد قلقه الفني[١٥] الى الوصول نحو مشارف الكتابة السياسية..